ماهيّة أدب الرّحلة عند العرب والمسلمين

– الرحلة الحجازيّة نموذجا –

أة/ ليلى غويني

جامعة الجزائر

ملخص:

تعتبر كتب الرحلات عموما من أهم المصادر التاريخية، إذ اتصف الرحالة ولو بدرجات متفاوتة بدقة الملاحظة والوصف والتقصي وتسجيل مشاهداتهم. ولقد كان من بين الرحالة رجال علم ودين قامت رحلتهم على أساس التزود بالعلم والالتقاء بالعلماء في مراكز الحضارة الإسلامية كما كان من بينهم رجال شغفوا بالتطواف والسفر وكانت المغامرة واستكشاف المجهول دافعا لرحلاتهم. وكان الحج من أهم العوامل التي دفعت بهؤلاء وغيرهم من المسلمين لشد الرحال إلى البيت الحرام وأداء الركن الخامس من أركان الإسلام. والرحلة الحجازية بشكل خاص تناولت الجانب السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي ، إذ أن أغلب رحالة سجلوا مشاهداتهم ومعايناتهم للأقاليم المختلفة التي وطئوها وهم في رحلتهم إلى الحجاز، وأدت بالتالي إلى اتساع

أفق صاحبها لكثرة ما زار من البلدان واختلط بالعلماء فجاءت بذلك في أسلوب أدبي رفيع.

الكلمات المفتاحية: الرحلة، أدب الرحلة، الرحلة الحجازية.

تمهيد:

شكّلت الرّحلة ضربا من أهم ضروب النّشاط الإنساني، فمنذ ظهور الجنس البشري لم يتوقف الإنسان عن الحركة والتّنقل، وهي سِمة أساسية في تركيبته الجسدية والنفسية، فطالما انتقل من مكان إلى آخر سعيا وراء إيجاد المناطق الحيوية وسبل الرّزق، وحتى بعد أن أتقن الزّراعة وعرف الاستقرار وأسس المجتمعات، ظل على مدى العصور يتطلّع إلى استكشاف الآفاق البعيدة، وازدادت رغبته في السؤال "كيف، ولماذا ؟" وكثرت أسفاره.

وقد عُرف العرب تحديدا بحبهم للرحلة والتجول منذ عهد الجاهلية، كما تنوعت وتشعبت الأغراض التي دفعتهم لشد الرحال، فمنها الاقتصادية والسياسية والسياحية والدينية والثقافية، وإن كان الطابع التجاري والاقتصادي هو الغالب عليها.

ومهما كان الغرض من الرحلة، فقد عرفت تطورات هامة في العهد الإسلامي، وظهر شكل جديد من المدوّنات عُرفت "بأدب الرحلة" وهي ذات وزن هام بين المصادر التاريخية والجغرافية.

أولا: مفهوم أدب الرحلة:

عرف العرب الرّحلة منذ القديم، ومع ظهور الإسلام أصبحت عنايتهم بها عظيمة، وارتبط مفهوم الرحلة عندهم بالكتابة الأدبية، فإن كان معظم الرحالة في العالم الغربي بعيدين عن ميدان الأدب، فإن الرحالة العرب كانوا كُتّابًا قبل كل شيء، فقد جابوا كل الأرض المعمورة في أزمانهم، ودوّنوا ملاحمها الإنسانية والجغرافية والتاريخية، فكانت جهودهم عظيمة أفرزت تراثا عربيا هائلا بنيت على أساسه عدة علوم، منها علم الجغرافيا والتاريخ، وعلم الاجتماع[1].

وكانت البدايات الأولى لأدب الرحلة في شكل انطباعات ومشاهدات وملاحظات سجلها الرحالة، وغالبا ما كانت هذه الملاحظات على شكل مواقف أو حوادث تنتقل عن طريق المشافهة دون تقييد أو تسجيل، ومع مرور الوقت تحولت المشاهدات البدائية إلى نوع من الأدب يحمل سِمات مميزة يُعرف بها بين جماهير القرّاء، ومنها تحول أدب الرحلة من مجرد حشد

لمعلومات متناثرة، إلى وصف سردي يصوّر فيه الكاتب ما جرى له من أحداث، وما صادفه من أمور أثناء رحلته[2].

واشتملت كتابات الرحالة العرب على الجانب الحقيقي الواقعي، وعلى الجانب الخيالي الأسطوري، فأرضت في نفس الوقت ذوق الكثيرين من محبي العجائب والغرائب [3]. ويُرجع عبد الهادي التازي تاريخ ظهور تسمية "أدب الرحلة" إلى منتصف القرن التاسع عشر حين أقبل العرب على استعمالها، وذلك عندما ظهرت رحلة ابن بطوطة-سيأتي ذكره- صاحب أهم رحلة في القرن الرابع عشر ميلادي مترجمة للغة الفرنسية ثم الإنجليزية وغيرها، فأخذنا نسمع عن أدب الرحلة [4]، أما قبل هذا التاريخ فالكلمة التي كانت سائدة ومستعملة عند العرب هي الرحلة[5].

ثانيا: لمحة تاريخية عن الرحلة عند العرب:

عرف العرب قبل الإسلام رحلات تجارية متعددة إلى بلاد العراق والشام واليمن وغيرها وداخل الجزيرة العربية، ومع أن هذه الرحلات لم تسجّل إلا من خلال القصائد وكتب اللغة، إلا أنها أفادت المسلمين في الفتوحات، وأظهرت روح التراث العربي الذي كان يشجع على الترحال والاستكشاف[6].

أما من الناحية التاريخية، يمكن القول أن الفتوحات الإسلامية كانت بمثابة البداية الفعلية لهذا الأدب، حيث قدّمت

للعرب المسلمين تجارب ومعارف جغرافية وبشرية جديدة، لاسيما وأن الدولة الإسلامية عرفت توسعا كبيرا مشرقًا ومغربًا، وهو ما استوجب معرفة شؤون البلاد والعباد والتحكم في الحدود، فكان متولّو البريد رحالةً يقدمون تقريرا عن المسالك والطرق وأحوال المسلمين في إطار الرحلات التكلفية[7]، وأصلح مثال على ذلك ما ألّفه ابن خرداذبه (ت272هـ/685م) في كتابه "المسالك والممالك"، فتنوّعت بذلك عوامل ودوافع الرحلة.

وهناك عوامل أخرى تعود إلى جوهر الدين الإسلامي، جعلت الرحلة تعرف تطورا هاما في هذه الفترة، فقد شجعت الدعوة الإسلامية المسلم على السفر والرحلة لأغراض عدة أهمها:

* تبليغ الرسالة المحمدية والسعي إلى الرزق، فيقول عز وجل: **"هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ"** [8]، كما قال : **"قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ"**[9].

ومن هنا يتبيّن أن من المسلمين من كان يسافر لغرض التجارة أو طلبًا للرزق، ومنهم من كان يسعى وراء البحث والاستكشاف أو للسفارة، أو بدافع الجهاد وتأمين حدود الدولة الإسلامية، أو ما كان يُعرف حينها "بدار الإسلام"[10].

* حج بيت الله لمن استطاع إليه سبيلا، وهو من أهم دوافع الرحلة، وقد أقدم المسلمون على تلبية هذه الدعوة الكريمة استجابة لقوله تعالى: " **وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (27) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ**"[11].

كما حثّ الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام على زيارة المساجد، حيث جاء في الأثر الشريف قوله: **"لا تُشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، المسجد الحرام، ومسجدي هذا والمسجد الأقصى"** [12]. فكان من واجب الحاج أن يُبيّن مختلف الطرق وأحسنها، ويصف محطات القوافل وأماكن الماء ومنازل الحجيج بين البلدان.

* كان الدافع لتحصيل العلم من المراكز العلمية الإسلامية المتعددة والمنتشرة في كل أنحاء العالم، ولاسيما في البلاد الإسلامية عاملا لا يُستهان به في ازدهار كتب الرحلات، وتعددت الأحاديث التي حثت المسلمين على طلب العلم ومنها قوله عليه الصلاة والسلام: **"من خرج من بيته في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع"**[13].

لقد أثمرت فطرة الرجل العربي المُحبة للتنقل والترحال وحبه للطبيعة والاستكشاف روادا من الرحالين أسهموا بما سجلوه عن قصد أو غير قصد في توفير معارف جغرافية

وتاريخية واجتماعية وثقافية عظيمة القيمة، والملاحظ أنه من الصعب وضع قائمة لكل الرحلات العربية عبر عصورها في هذا المجال، وعليه سنحاول سرد أهم الرحلات التي احتفظ لنا بها التاريخ، والتي أظهرت تطورا في أسلوب كتابة أدب الرحلة وتنوعا في المواضيع.

برزت أشهر الكتابات الجغرافيا والرحلات خلال القرن الرابع الهجري (العاشر ميلادي) وتميزت بالنضج والتخصص في علم الجغرافيا والتاريخ، ومن أشهر روّادها:

المسعودي (ت 346 هـ/ 956م) [14] صاحب كتاب "مروج الذهب ومعادن الجواهر"، والمقدسي (ت 389هـ/1000م) [15] صاحب كتاب "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم"، وأبو الريحان محمد البيروني (ت 440هـ/1048م) [16] صاحب أهم مصنف "الآثار الباقية عن القرون الخالية".

أما القرن الخامس الهجري (الحادي عشر ميلادي)، فقد برزت فيه أقلام رحالة وجغرافيي الغرب الإسلامي، فأبدعوا في الميدان الجغرافي الذي كسا رحلاتهم وعناوينها ومن أهمهم: أحمد بن عمر العذري صاحب "كتاب نظام المرجان في المسالك والممالك" وأبو عبيد الله البكري (ت 487هـ-1094م)، أكبر رحالة أندلسي، صاحب أهم كتابين "المسالك والممالك" [17] و"معجم ما

استخدم من أسماء الأماكن والبقاع" الذي يعتبر معجما جغرافيا هامّا.

وعرف القرن السادس هجري (الثاني عشر ميلادي) بأسماء لمعت وذاع صيتها وضعت أسس أدب الرحلة بصورة فنية، حيث قدمت لنا مادة ضخمة تحفل بمعلومات اجتماعية وثقافية عن البلاد التي جال فيها الرحالة، ويعتبر منهجهم العلمي الذي يعتمد على المشاهدة المباشرة في جمع المادة وتدوينها، نقلة نوعية وحضارية كبيرة في هذا المجال، ومن صفوة رحالة هذا القرن، أبو بكر بن العربي (ت 543هـ/1148م) وهو أول من استخدم لفظ رحلة كعنوان فأطلق على كتابه اسم "ترتيب الرحلة" [18]، والرحالة الجغرافي الشهير الشريف الإدريسي (ت560هـ/1160م) [19]، صاحب كتاب "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" ويعتبر من أهم المصادر الجغرافية لبلاد المغرب وصقلية [20]. الرحالة الجغرافي أبو حامد الغرناطي الأندلسي (ت565هـ/1170م) صاحب كتاب "المغرب عن بعض عجائب المغرب"[21]

ومع نهاية هذا القرن اكتملت الملامح الأساسية لأدب الرحلة على يد الرحالة الأندلسي ابن جبير (ت614 هـ/1217م) الذي رتب الحوادث حسب التسلسل الزمني، فسرد المعلومات متسلسلة، وأبرز نوعا مميزا وجديدا من أدب الرحلة[22].

ومع حلول القرن السابع الهجري (الثالث عشر ميلادي)، بدأ الجانب العلمي يطغى على كتب الرحلة، فبرز عدد من الرحالة الذين بقيت بصماتهم متأصلة، حيث تركوا مؤلفات ذات أفاق واسعة ومتعددة المشارب، ولعل من أبرزهم ياقوت الحموي (ت 626هـ/1229م) [23] صاحب كتاب "معجم البلدان" وهو كتاب ضخم احتوى بين دفتيه معارف جغرافية وتاريخية هامة، والرحالة شمس الدين الدمشقي (ت 654هـ/ 1256م) صاحب كتاب "نخبة الدهر في عجائب البر والبحر".

أما في المغرب الإسلامي فقد كان الرحالة الأندلسي ابن سعيد الغرناطي (ت 673هـ/ 1274م) الذي جال في أقطار كثيرة من العالم الإسلامي واتصل بالعديد من العلماء، فألف كتابيه "المُغرب في حُلى المَغرب" و"المُشرق في حُلى المَشرق"، وجمع في كتابته بين الفروع العلمية كالتاريخ والجغرافيا والفلك وبين الميل الأدبي القوي، فساهم في ترسيخ ثقافة جديدة في أسلوب كتابة الرحلة [24]. ومع نهاية القرن نفسه أبدع الأديب الفقيه محمد العبدري في وصف بلاد شمال إفريقيا في رحلته الموسومة بـ "الرحلة المغربية"[25].

أما رجال الثامن هجري (الرابع عشر ميلادي)، فقد قدموا موسوعات جعلت أدب الرحلة يخطو خطوات كبيرة وثابتة، ومن أشهر رحالة المشرق، زكريا القزويني (ت750هـ/1349م) [26] صاحب الرحلة المسماة "عجائب

المخلوقات وغرائب الموجودات"، والرحالة ابن فضل العمري صاحب كتاب "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار"[27].

ومن أبرز الرحالة في المغرب الإسلامي والعالم في هذه الفترة، ابن بطوطة (أبو عبد الله اللواتي الطنجي) صاحب أشهر رحلة مسماة بـ "تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" وقد حوت على كم هائل من المعلومات الجغرافية والبشرية والأدبية الدقيقة[28].

وتأتي رحلة ابن خلدون [29] في المرتبة الثانية من حيث الأهمية بعد رحلة ابن بطوطة، وتصنف من الرحلات العلمية، فقد اهتم بوصف الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية لبلاد المغرب إبان القرن الثامن الهجري (الرابع عشر ميلادي) [30]. كما قدّم ابن خلدون في رحلته ترجمة كاملة لحياته ولجميع تنقلاته، واستعمل أسلوبا أدبيا بسيطا ودقيقا في تصنيف الأحداث وترتيبها، وتعتبر رحلته مصنفا علميا في حقل أدب الرحلة [31]، وأطلق عليها اسم: "التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا" و الكتاب يقع في آخر كتاب "العبر"[32].

ومن مشاهير هذا القرن نذكر الرحالة ابن رشيد السبتي (محمد ابن عمر الفهري) صاحب الرحلة الموسومة بـ: "ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة"، أو "ملء العيبة بما جمع في طول الغيبة من الشام

ومصر ومكة وطيبة" [33]، والتبجي القاسم بن يوسف بن محمد السبتي (ت730هـ/1330م)، ورحلته الموسومة "مستفاد الرحلة والاغتراب"[34].

أما القرن التاسع هجري (الخامس عشر ميلادي) فأشهر رحّالته، الحسن بن الوزان المعروف باسم ليون الإفريقي [35]، الذي وضع كتابا سماه "وصف إفريقيا" وهو كتاب في الجغرافيا العامة، ألّفه صاحبه باللغة العربية، ثم ترجمه إلى اللغة الإيطالية، ويذكر أنه لم يستند إلى كتب في إنشاء هذا المصنف إلا على ما رآه من مشاهداته وخبراته الشخصية أثناء رحلاته الكثيرة والمتنوعة، ويمثل الكتاب موسوعة جغرافية وتاريخية واجتماعية، ومع أن الوصف الجغرافي طغى عليه، إلا أننا نلمس فيه الدقة في الملاحظة عند المؤلف، مما ساعد على تطور فن الرحلة والكتابة فيه[36].

ومع أن أدب الرحلة عرف تطورا هاما في الكتابة وتنوعا في المواضيع، وبلغ ذروته وارتفع شأنه، خصوصا خلال القرن الرابع الهجري وما تلاه من عصر الاستقرار والازدهار والمعرفة حتى مشارف القرن العاشر هجري (السادس عشر ميلادي)، حين بدأت معالم التدهور تصيب كافة مجالات الحياة بما في ذلك الرحلات، إلى أن خبا نشاطها تدريجيا، وهزلت مادتها، فاقتصر الرحالة على زيارة اسطنبول عاصمة الخلافة العثمانية، وعلى الحج وزيارة الأماكن المقدسة الإسلامية أوالمسيحية[37].

ولم يكن القرن الحادي عشر والثاني عشر هجري (السابع عشر والثامن عشر ميلادي) أحسن حظا، حيث تدهورت نوعية الكتابة وتقلصت دوافع الرحلة، فيما عدا التأليف في الرحلات الحجازية الذي بقي محافظا على مكانة لا بأس بها، وإن تفاوتت قيمة وأهمية كل رحلة بحسب ثقافة الرحالة وقدرته الأدبية[38].

ومع هذا فإن أصحاب الرحلات الحجازية يعدون بالعشرات خلال الفترة الحديثة، وقد أسهمت كتابتهم في نقل ثقافات المجتمعات وأفكارها وعاداتها وتقاليدها، فأضحت من أهم المصادر التاريخية الاجتماعية والإثنوغرافية [39]،ولا يخفى ما تتمتع به الرحلات الحجازية من أهمية بالغة بين مصادر التاريخ، إذ تكشف عن جوانب قلّما نجدها في غيرها من المصادر، فسوف نتحدث عن مفهوم الرحلة الحجازية وأهميتها العلمية والتاريخية، وعن أهم أعلامها من المغرب الإسلامي، وقبل هذا يجدر بنا إلقاء الضوء على أنواع الرحلة.

ثالثا: الرّحلة وأنواعها:

سبقت الإشارة إلى أن للرحلة أغراضا عديدة تدفع بالإنسان إلى السفر وشد الرحال ومن ثم تعددت وتنوعت أنواع الرحلة التي يمكن تقسيمها حسب الدوافع المحفزة لها[40] إلى:

أ- **الرحلة الاستطلاعية:** يقوم بها صاحبها قصد التجوال والمغامرة للتعرف على الأماكن المجهولة، ويقدم وصفا للمسالك وأسماء البلدان والقرى والقبائل والمناخ، وأفضل مثال على هذا النوع، رحلة ابن بطوطة، ورحلة حسن الوزان، ورحلة ابن حوقل، ورحلة ابن جبير، والمسعودي، والإدريسي.

ب- **الرحلة السفارية:** دافعها سياسي، ويكون صاحبها مبعوثا رسميا (سفير) فيركّز على تدوين أخبار الحكام والسلاطين وسياسة البلدان، وأحسن مثال على هذا الصنف من الرحلة، رحلة التمقروطي المعروفة بـ"النفحة المسكية في السفارة التركية"[41].

ج- **الرحلة العلمية:** يكون دافعها الحاجة الذاتية بغرض الاستزادة من العلم والتعلم ولقاء العلماء، والاطّلاع على الكتب والمكتبات من الأقطار الإسلامية والأجنبية، ويمكن القول أن جُلَّ الرحلات العربية اتسمت بصفة العلمية حتى لو لم يكن هدفها علميا.

د- **الرحلات الحجازية الخيالية:** عادة ما يكتبها أصحابها شوقا وحبا للبقاع المقدسة، فيصف فيها معالم ومواقع وشخصيات وهمية، وتتميز بكتابة أدبية رائعة العبارات وكلمات مسجوعة منمّقة، وفي أغلب الوقت تكون الرّحلات نظمية.

هـ- الرحلات الزيارة: يكون غرضها التبرك وزيارة أضرحة الأولياء والزوايا والأماكن المقدسة المعروفة، والتي يتحدث عنها الرحالة على سبيل الافتخار والتعريف بها، وأبرز مثال على هذا النوع ما وارد في رحلة الورثيلاني المسمّاة: "**نزهة الأنظار في فضل التاريخ والأخبار** " التي جاب خلالها أشهر الزوايا والأضرحة في بلاد المغرب ومصر والحجاز.

وفي الحقيقة أنّ كثيرا ما ارتبطت دوافع و أغراض الرحلة عند العرب المسلمين ببعضها البعض، حيث أنّ جلّ الرّحلات السّابقة الذّكر كان الغرض الرئيسي فيها هو الحجّ، ولكن تصنيف الرّحلة إلى الأنواع المشار إليها يكون حسب المادّة العلميّة الغالبة عليها.

رابعا: الرّحلات الحجازية نموذجا:

يبقى الدافع الديني أهم الدوافع المُحمسّة على السفر، وعُرف لدى المسلمين حبهم لزيارة الأماكن المقدسة، ولمّا كان الحج الركن الخامس من أركان الإسلام، زادت رغبتهم في الرحلة، ولكن العلماء لم يقتصروا على أداء الفريضة بل تجاوزوها إلى تحصيل العلوم الدينية النافعة، بالدرس على أجِلّة الفقهاء في العواصم التي يمرون بها خلال رحلاتهم، ولهذا كان بعضهم يسافر قبل موسم الحج بزمن كاف ليجد من الوقت ما يُحصّل فيه زاده من المعرفة، فكان من أثر ذلك أن ألّفوا كتبا كثيرة في

وصف الرحلات إلى البيت العتيق لا يدركها الحصر، منهم من أدمجها في كتب المسالك، ومنهم من أفردها، وقد وردت على شكلين، فمنهم من دوّنها نثرا، ومنهم من نظمها شعرا [42]. و كان لهذه الرّحلة بعد علمي و تاريخي و آداب خاصّة للسّفر انفردت بها الرّحلة الحجازيّة دون غيرها من أنواع الرّحلات.

1- البعد العلمي والتاريخي للرحلة الحجازية:

من أهم الخصائص العلمية التي تُميز الرّحلة الحجازية تعدد مواضيعها، مما وسع مجال الاستفادة منها، فنجد الرحالة يمزج بين الجغرافيا والتاريخ والأدب والدين، وعليه يمكن أن تكون موضوعا للعديد من البحوث والدراسات من جميع الجوانب، نظرا لغزارتها، ومما تقدم ذكره يمكن رصد أهم الأبعاد العلمية للرحلات الحجازية في المجالات التالية:

أ- الكشف الجغرافي:

لعل أبرز دور قامت به الرحلة في الأدب العالمي عامة والأدب العربي خاصة، الخدمة الكبرى التي قدمتها لعلم الجغرافيا، فقد كان للرحالة في وصفهم للمسالك والممالك والطبيعة والأودية والجبال والمناخ، دور كبير في وضع دراسة وصفية للأقاليم، وفي هذا الشأن أشار صاحب الكتاب الموسوعي "التراث الجغرافي العربي" إلى أهمية رحلات العرب نحو العالم عامة ونحو الحجاز خاصة، في الكشف الجغرافي[43].

ب- البعد الأدبي:

ارتبطت أدبيات الرحلات بفنون الأدب العربي وأصبحت تزخر بالعناصر الأدبية، وأهم ما يميز هذا الفن هو التنوع في الأسلوب من السرد القصصي إلى الحوار الوصفي [44]، ورغم أن لأدب الرحلة هذه السمات والخصائص، فإن من أهم ميزاته حرية الأديب في أن يكتب كيفما شاء، فهو فن التعبير عن المشاعر التي تختلج في نفس المؤلف المغترب اتجاه ما يصادفه وما يراه، فيعبّر عنه تارة شعرا، وتارة أخرى نثرا[45].

ج- البعد الثقافي:

أخذت الثقافة جانبا مُهمّا من نشاط العلماء وهم في رحلتهم إلى الحج، فمن خلال الوقوف على النصوص الأدبية، والإجازات والتأليف، وأسماء العلماء والفقهاء الواردة في الرحلة والتي تعبر على معايير لثقافة العصر ومستواها، ومنه يمكن القول أن كتب الرّحلات من أهم وأبرز مصادر المعارف العلمية.

د) الأهمية التاريخية للرحلة الحجازية:

لا تتوقف ثمار الرحلة عند كشف المجهول من طبائع الشعوب، لكنها تجود بالمكاسب التاريخية التي قد يتعذر حصرها، فيعد نص الرحلة وثيقة تاريخية ذات أهمية بالغة للمؤرخ، لأن الرحالة يسعى إلى تدوين التواريخ منذ انطلاق الرحلة إلى عودته، ويتحدث عن المعالم التاريخية، ويحكي عن

الأحداث التي عايشها عن قرب أو سمع عنها، ويتعرض لعادات وتقاليد المجتمعات، زد على ذلك تطرقه إلى الجانب السياسي والدبلوماسي، وتاريخ البلدان التي عبرها، وغير ذلك من الجوانب التي تعتبر مادة خصبة لدارسي التاريخ[46].

ولقد شكلت الرحلة محورا أساسيا في المجتمعات الإسلامية، وفي نفسية أفرادها، وعليه كان الرحالة يهيئ نفسه ويتزود بالزاد الروحي والمادي قبل أن يشد الرحال، ومن هذا المنطلق أصبحت للرحلة آداب، وللسفر تقاليد عدّها أبو حامد الغزالي في تسعة نقاط[47]:

1- أن يبدأ المسافر بردّ المظالم وقضاء الدّيْن، ولا يأخذ لزاده إلا الأكل الطيب، وليأخذ قدرا يوسع به على رفقائه.

2- أن يختار رفيقا أو أكثر فلا يخرج وحده، حيث يقول عليه الصلاة والسلام: **"وإذا كنتم ثلاثة في السفر فأمروا أحدكم"** ، لذا يحتاج إلى الأمير، لأن الآراء تختلف في تعين المنازل والطرق ومصالح السفر ولا نظام إلا في الواحدة.

3- أن يودّع الرفقاء والأهل.

4- أن يصلي قبل سفره صلاة الاستخارة، ووقت الخروج يصلي صلاة السفر ويدعو دعاءه.

5- أن يرحل عن المنزل بُكرة، ويفضّل أن يخرج يوم الخميس، ولقد حرص معظم الرحالة على أن تبدأ رحلتهم يوم الخميس.

6- أن يكون أكثر سيره بالليل وهي سُنّة.

7- أن يحتاط بالنهار فلا يمشي منفردا خارج القافلة، وبالليل مستحب أن يتناوب الرفقاء في الحراسة.

8- أن يرفق بالدابة إذا كان راكبا فلا يحملها مالا تطيق، ولا يضربها ولا يؤذيها.

9- في آداب الرجوع من السفر أن يحمل المرء لأهله وأقاربه هدية على قدر إمكانيته، وهذا من سُنّة.

وما من تحفة أحسن من كتب الرحلة التي حملها العلماء، ليس لذويهم فقط، بل لأحفادهم، وللتراث العربي الإسلامي إلى يومنا هذا.

وتجدر الإشارة إلى أن الرحالة زيادة على إتباعهم لتقاليد السفر وآداب الرحلة، فإنهم يتمتعون بمميزات شخصية خاصة، منها قوة الملاحظة، حب الاستطلاع ويقظة الحواس وحب الحوار، والرغبة في التحصيل والحرص على التدوين والتسجيل[48].

والملاحظ أنه لم يخل التاريخ الإسلامي عبر العصور من مؤلفي الرحلات الحجازية منذ ظهورها، وقد أنتج هذا الفضاء الجغرافي رصيدا كبيرا أسهم في الحصول على تراث فريد من نوعه، ذو قيمة هامة، يعتبر منبعا لكل راغب في البحث في شتى الميادين، و لا يسع في هذا المحل ذكر كلّ مدوّنات الرّحّالة العرب المسلمين في المشرق و المغرب، بينما يمكن ذكر أشهر نماذج الرّحلات الحجازية في بلاد االمغرب.[49]

والحاصل أن لأدب الرحلة جذورا عريقة في التراث الأدبي الإسلامي منذ عهوده الأولى، إذ كان له دور كبير في إظهار مختلف أوجه الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للمجتمع الإسلامي وغير الإسلامي، وبشكل خاص الثقافية منها، وكان عامل الحج من أبرز دوافع الرحلة، لذالك تعتبر الرحلة الحجازية القاعدة الأساسية للتعرف على المجتمعات العربيّة بطريقة عفويّة.

ملحق: جدول يبيّن أبرز الرّحلات المغربيّة عبر القرون

صاحب الرّحلة	وفاته	اسم الرّحلة
أحمد بن عمر العذري	478هـ/ 1085م	"كتاب نظام المرجان في المسالك والممالك
وأبو عبيد الله البكري	(487هـ-1094م)،	- "المسالك والممالك - معجم ما استخدم من أسماء الأماكن والبقاع"
أبو بكر محمّد بن العربي	543 هـ/ 1148م	الرّحلة أو ترتيب الرّحلة
أبو حامد الغرناطي	565 هـ/ 1170م	"المغرب عن بعض عجائب المغرب
محمّد بن أحمد بن الجبير	614هـ/1217م	رحلة ابن جبير
ابن بطوطة (أبو عبد الله اللواتي الطنجي)	770هـ/1368م	تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار
عبد الرحمن ابن خلدون	808 هـ/1405م	رحلة ابن خلدون و تعرف بـ "التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا"
أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي	1019هـ/ 1679م	الرحلة العياشية أو ماء الموائد
أحمد بن أحمد بن يحي بن عبد الرحمان بن أبي العيش المقّري التلمساني	1041 هـ/1631م	رحلةالمقّري في المشرق والمغرب
عبد الرحمن بن محمد بن الخروب المجاجي	غير معروف (القرن 11هـ/17م)	رحلة عبد الرحمان المجاجي

أحمد بن محمّد الجزولي الهشتوكي	1095هـ/1683م	هداية الملك العلام إلى بيت الله الحرام و زيارة النّبيّ عليه الصّلاة و السّلام
أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي	1102هـ/ 1691م	رحلة أبي علي اليوسي
عبد الرّحمن بن أبي القاسم الشاوي المزمزي الغنامي	غير معروف	رحلة القاصدين و رغبة الزائرين
محمد بن أحمد الصّغير السّوسي أبو مدين الدّرعي	1157/ 1744م	رحلة أبي مدين الدّرعي
محمّد بن منصور العامري التّازي	1179هـ/ 1757م	الرّحلة العامريّة
محمّد بن مسايب	1190هـ/ 1776م	رحلة ابن مسايب
الحسين بن السعيد الورثيلاني	1193 هـ/1779م	نزهة الأنظار في فضل التاريخ والأخبار
لعبد الرزاق بن محمد بن محمد، المعروف بابن حمادوش	مابين 1197-1200هـ/1793-1786م	لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال
أبو العباس أحمد بن عمار الجزائري	1205هـ/ 1790م	نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب
محمد بن أحمد بن عبد القادر بن محمد بن ناصر الراشيدي المعروف بأبي راس الناصر	1238هـ/ 1823م	فتح الإله ومنّته في التحدث بفضل ربي ونعمته

محمّد بن عبد السلام الدّرعي الناصري	1239هـ/ 1823م	الرّحلة الكبرى
أبو القاسم بن أحمد الزياني	1249 هـ/ 1833م	التّرجمانة الكبرى
محمّد بن أحمد بن سالم السّباغ	1321هـ/ 1902م	تحصيل المرام في أخبار البيت الحرام و المشاعر العظام

الهوامش:

1). إن لنصوص الرحلة أهمية كبيرة في أدب الجغرافيا التاريخية " Littérature La historique géographique في اللغة العربية، وتعتبر كتابات المسلمين حول بلادهم والبلدان الأجنبية من أهم الدعائم التي شكلت ملامح الجغرافيا والتاريخ. انظر:

- Robert, Brunschvig: **Deux récits de voyage inédit en Afrique du nord au xv siècle**, tome 6, vol 187. in «Islamic.Géography», FRANKFURT UNIVERSITY, 1994, p: 5.

2). راغب نبيل، "أدب الرحلات"، **مجلة الفيصل**، العدد 88، السنة الثامنة، يوليو 1984، ص: 71.

3). (Brunschivig R, **Op. cit**, p, 187.

4). عبد الهادي التازي، "أدب الرحلات: هل سيختفي من الساحة؟"، **الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية**، ج1، بحوث ندوة الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية المنعقد في الرياض، رجب 1421/ أكتوبر 2000م، دارة الملك عبد العزيز، السعودية 2000م، ص: 11.

5). الرحلة: يرتبط مفهومها بترويض الإبل أو الجياد إلى أن تصير "راحلة"، ويقول ا بن منظور: "الراحلة من الإبل البعير القوي على الأسفار والأحمال، وهي التي يختارها الرجل لمركبه ورحله..." وهي أيضاً الترحال والارتحال، أي الانتقال من مرحلة إلى أخرى. للمزيد انظر: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي المصري ابن منظور، **لسان العرب**، المجلد 11، دار الصادر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان1388هـ/1968م، ص ص:277-279.

6). وردت في كتب اللغة قصائد لشعراء رحالة وتشير الدراسة التحليلية لهذه القصائد أن مفهوم الرحلة عند شاعر الجاهلية يرتبط برحلته على ناقته في الصحراء التي يصور فيها الصورة الرمزية الخصبة لرحلة الحياة نفسها في ذلك المحيط، وكانت هناك أسواق تشتهر فيها المباراة في قول الشعر، مما فتح المجال للشعراء لشد الرحال إليها. انظر: أحمد بن جدو، "الرحلة في طلب العلم"، **مجلة كلية الأدب**، العدد 2، الجزائر، سنة 1970م، ص: 88.

7). لعبت الرحلات التكلفية دورا هاما في إعطاء المعلومات والبيانات عن البلدان والشعوب التي امتد إليها الإسلام، وإن هذا النوع من الرحلات كان قد بدأ في عهد النبي عليه الصلاة والسلام، إلى أن كتب الأدب والتاريخ لم تحتفظ سوى ببعض الأخبار عنها، انظر: فؤاد قنديل، **أدب الرحلة في التراث العربي**، مكتبة الدار العربية القاهرة، 2002م، ص ص: 34- 35.

8). سورة، **المُلك**، الآية، 15.

9). سورة، **الأنعام**، الآية، 11.

110). Houari Touati, **Islam et voyage au Moyen Age** , édition du SEUIL, PARIS, 2000, p: 11-12.

11). سورة الحج، الآية (27-28).

12). رواه **الترمذي**.

13). أخرجه **الترمذي** وقال حديث حسن.

14). حول المسعودي انظر:

- Andrè Miquel, « **Al Masùdi** ».dans Encyclopèdie **Universalis. Dictionnaire de l'Islam religion et civilisation,** Albin Michel, Paris, 1997, p: 536.

15). هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر المقدسي من بيت مقدس بفلسطين وإليه ينتسب، وهو في رأي بعض المستشرقين أعظم الجغرافيين عند العرب في جميع عصورهم، عاش في القرن (4 هـ/10م) فضرب في العالم الإسلامي وتنقل في ربوعه، اهتم بالحديث عن اختلاف أهل البلدان في كلامهم وألوانهم ومذاهبهم، واطلع على ما عندهم من المعارف والرسم والتاريخ. للمزيد انظر: شوقي ضيف، **الرحلات**، ط2، دار المعارف، بيروت، لبنان، 1969م، ص ص: 15- 16 وما بعدها؛ راغب نبيل، **المرجع السابق**، ص: 75.

16). أجمع الباحثون العرب والمستشرقون على علو شأن البيروني بين الرحالة والمؤرخين المسلمين، وذلك لتميز منهجه العلمي في وصف ودراسة الحضارات الإنسانية. للمزيد انظر: حسن محمد فهيم، **أدب الرحلات** ، ط2، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1983م، ص: 58.

17). لقد طبع جزء من **المسالك والممالك** ، الموسوم بـ" **المغرب في ذكر إفريقية والمغرب**"، ونشره البارون دوسلان، طبعة الجزائر، 1957م.

18). قنديل، **المرجع السابق**، ص: 75.

19)هو أبو عبد الله محمد الإدريسي أكبر جغرافي، بلاد المغرب والأندلس وهو من بني حمود الذين تملكوا بعض بلدان الأندلس في القرن 11م، ولد سنة (493 هـ/1099 م)، تعلم في قرطبة، ثم رحل إلى بلاد الأندلس والمغرب ومصر، انتهى به المطاف إلى صقلية، فرسم الخرائط ونقل المعارف وكتب كتابه المشهور " **نزهة المشتاق في اختراق الأفاق**". انظر: ضيف، **المرجع السابق**، ص: 19.

20). أغناطيوس كراتشكوفسكي، **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1987م، ص: 285.

21). ومن المصنفات المنسوبة إليه ذات الطابع الجغرافي "تحفة الألباب ونخبة الأعجاب" للمزيد انظر: كراتشكوفسكي، **المرجع السابق**، ص ص:226-231.

22). كراتشكوفسكي، **المرجع السابق**، ص: 301. ؛Brunschvig . Op.cit, p187.

23). هو الشيخ الإمام شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي المولى، البغدادي المنشأ صاحب كتاب معجم البلدان، توفي عام 626هـ. انظر: ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، نشره، فردناند قستنفلد، سلسلة (جغرافيا.إسلامية)، المجلد 209، طبع في إطار جامعة فرانكفورت، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، جمهورية ألمانيا الاتحادية، 1415هـ/1994م، ص: مقدمة الكتاب.

24). محمد جابر الأنصاري، **التفاعل الثقافي بين المغرب والمشرق في آثار ابن سعيد المغربي ورحلاته وتحولات عصره، المشرقية**، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992م، ص ص: 15، 7.

25). رحلة العبدري المسماة **الرحلة المغربية**، لابن عبد الله محمد بن محمد العبدري، حققها وقدم لها وعلق عليها محمد الفاسي، وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي، الرباط، 1968م.

26). هو زكريا بن محمد بن محمود القزويني، يدل لقبه على أنه من إقليم بحر قزوين شمالي إيران، له كتاب "آثار البلاد وأخبار العباد" مدرج في قائمة سلسلة(ج. إ)، مجلد 198، تاريخ النشر 1994م، ص: مقدمة الكتاب.

27). هو شهاب الدين أحمد بن يحي بن فضل الله العمري، ولد في دمشق سنة 700هـ/ 1301م)، ولعله نشأ وتعلم في مصر، فشغل في كلا البلدين وظائف هامة، كانت وفاته في مدينة دمشق سنة (800هـ/1349م)، وأصبح كتابه متداولا في العالم الإسلامي بعد وفاته، يقع الكتاب حسب تقسيم المؤلف في 27 مجلدا (سفرا)، تم نشر بعض أجزاءه منها القسم الخاص باليمن، انظر: كراتشكوفسكي، **المرجع السابق**، ص: 442-448.

28). **نفسه**، ص: 426 وما بعدها؛ Touati(H): **Op. Cit**, p 13.

29). هو أبو زيد عبد الرحمان بن محمد بن خلدون (732هـ-808هـ/1332م-1406م) من أسرة أندلسية، كانت له نشأة علمية واسعة في جميع علوم العصر، تقلد العلامة مناصب عديدة كالقضاء وكاتب عام للديوان في أقطار إسلامية عديدة (فاس تلمسان، مصر، غرناطة...)، تعرض إلى السجن والاضطهاد، وعاش فترة تفتت وانقسام العلم الإسلامي إلى دويلات صغيرة، له أعمال هائلة أشهرها كتابه الضخم "ديوان العبر" ومقدمته المشهورة، انظر: حسان حلاق، **مقدمة في مناهج البحث التاريخي**، دار النهضة العربية، بيروت،1988م، ص ص:307- 308.

30). عمر فروخ، **تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون** ، الطبعة الأولى، منشرات المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، بيروت، لبنان، 1962م، ص: 577-593.

31). محمد بن معمر، "واقع المغرب الأوسط من خلال رحلة ابن خلدون"، **الشرق والغرب في مدونات الرحالة العرب والمسلمين، أبحاث ندوة الرحالة العرب والمسلمين اكتشاف الذات والآخر**ندورة الجزائر2005، ص ص:15-16.

32). عبد الرحمان ابن خلدون، **التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا** ، عارضه وعلق محمد بن تاويت الطنجي، صدر هذا الكتاب عن وزارة الثقافة الجزائرية، الجزائر، 2007م، مقدمة الكتاب ص: و.

33). عبد العزيز بن راشد السنيدي، **معجم ما ألف عن الحج تاريخه، مناسكه، تنظيمه، طرقه، الرحلات إليه** ، دار الملك عبد العزيز عبد العزيز، السعودية، 1423هـ/2002م، ص ص: 76- 77.

34). **نفسه**، ص: 54.

35). ينتسب الحسن بن محمد الوزان إلى قبيلة بني زيات الزيانية، يرجّح أنه ولد حوالي عام (888هـ/1483م)، انتقل مع أسرته بعد سقوط غرناطة إلى فاس ودرس على أعلام القرويين، برز نبوغه مبكرا مما لفت إليه نظر السلطان محمد الوطاسي فقربه إليه وجعله من رجال البلاط، وأسند إليه المهام السياسية والدبلوماسية والتجارية التي دفعته إلى القيام برحلات عديدة داخل وخارج المغرب، فقام بتسجيلها وكانت مادة لكتابه. انظر: الحسن بن محمد الوزان الفاسي، **وصف إفريقيا**، ترجمة محمد حجي، محمد الأخضر، ط 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1383هـ/1963م، ص ص:5-10.

36). **نفسه**، ص ص: 14-20.

37). راغب نبيل، **المرجع السابق**، ص: 79.

38). عبد الغني إسماعيل النابلسي، **الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد شام ومصر والحجاز** ، تقديم أحمد عبد المجيد، هيريدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر1986م، ص: مقدمة الكتاب؛ حامد الجاسر، "في رحاب الحرمين من خلال كتب الرحلات إلى الحج"، **مجلة العرب**،، ج5-6، السنة التاسعة، يناير 1975م، ص: 328.

39). الإنثوغرافية (*ETHNOGRAPTHIE*) هي فرع من الفروع الإنسانية التي تهتم بوصف أوجه النشاط البشري (تقنيات الحياة، أدوات، التنظيم الاجتماعي، الديانات...) للعرق البشري، وتجدر الإشارة إلي أنه لا يجب الخلط بين الإثنوجرافيا كعلم يعتمد على الوصف والتحليل، والإثنولوجيا العلم الذي يعتمد على الاستنتاج والمقارنة بين صفات المجموعات من الأعراق البشرية. للمزيد انظر:

- **Grand Larousse Encyclopédique**, Librairie Larousse, Paris, 1968, T4, P: 768-769.

40). للمزيد حول أنواع الرحلات انظر: مولاي بلحميسي، **الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني** ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979م، ص ص: 10-11؛ قنديل، **المرجع السابق** ، ص ص: 19-20؛ سميرة انساعد، **أدب الرحلات الحجازية النثرية في الجزائر من القرن الحادي عشر إلي الثالث عشر الهجري (القرن 17-19م)**، مذكرة ماجستير، غير مطبوعة، السنة الجامعية 2000-2001م، ص: 5.

41). محمد الجزولي التمجروطي، **النفحة المكية في السفارة التركية**، تقدم وتعليق سليمان الصيد، دار بوسلامة للطباعة والنشر، تونس 1988م.

42). النابلسي، **المرجع السابق**، ص: مقدمة الكتاب.

43). كراتشكوفسكي، **المرجع السابق**، ص ص: 10-11.

44). حول الدراسة الأدبية وأسلوب السرد لفن أدب الرحلة. انظر: انساعد، **المرجع السابق**، ص ص: 105-158.

45). حامد الجاسر، **المرجع السابق**، ص: 328.

46). عبد الخالق المفضل أحمدون، "الرحلة الحجازية الصغرى لأبي عبد الله محمد عبد السلام بن ناصر الدرعي (ت1239هـ/1823م)، قيمتها العلمية والتاريخية"، **الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية**.، ج1، ص: 205، 206.

47). أبو حامد الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج6، دار الغد العربي، القاهرة، 1987م، ص ص: 107-108.

48). Houari Touati, **Op.cit**, pp: 128,129

49). أنظر الملحق:جدول بيين أبرز الرحلات المغربية عبر القرون.